سورية أرض عربية تطفح بروائع الآثار

للدكتور سليم عادل عبدالحق
مدير الآثار العام فى سورية

تؤلف سورية العربية مع أشقائها لبنان والاردن وفلسطين القسم الشمالى من شبه جزيرة العرب ، وتمتد بين مصر والاناضول وبلاد الرافدين ، متمتعة بمركز متوسط بين قارات العالم القديم الثلاث . وهذا ما جعلها ملتقى البشر والافكار ، ونقطة تقاطع الطرق العالمية ، وبؤرة انصهرت فيها كل المدنيات ، ثم توزعت فى كل الاتجاهات خلال كل العصور .

وشاء مصيرها هذا أن تطفح أرضها بأوابد وآثار لا يحصر عددها ، ويعود عهدها الى أكثر من خمسين قرنا ، مجتمعة على شكل متحف ، تمتد كنوزه الاثرية على كل البقاع السورية . وتدل هذه الكنوز على أن لسورية مدنية أصيلة لم تكن مزجا سطحيا لكل المدنيات المعروفة ، بل اتحادا وثيقا وفذا لكل التيارات الفكرية والفنية التى عرفها الشرق الادنى قديما ، ويضاف الى ذلك نزعة عاطفية للروحانية والتجرد ، ورغبة دائمة فى البراعة والاتقان لا تجارى .

وتبين بنتيجة الابحاث الاثرية والدراسات العلمية أن العامل الاساسى فى نشوء هذه المدنية السورية واستكمال أسبابها وتطورها وصياغة مراحلها المختلفة هى الاقوام التى خرجت على دفعات متعاقبة خلال العصور من شبه جزيرة العرب ، ولما كانت هذه الاقوام تتشابه عرقيا وتتقارب لغويا ، وتشترك فى وطن واحد هو شبه

هذه المقالة والمقالتان اللتان بعدها هى محاضرات ثلاث ألقاها أصحابها فى بغداد أثناء انعقاد المؤتمر الثقافى العربى الثالث والمؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية فى (١٨ ــ ٢٨) تشرين الثانى (١٩٥٧) للميلاد .

جزيرة العرب ، فليس من ضير أن يطلق عليهـا اسم آخر حلقة فى سلسلتها ، وهم العرب الذين انحدروا من الاصل المشترك وكانوا أقربهـا اليه واذا كان اسم العرب لم يذكر لاول مرة الا فى نص (سالما نازار الثالث) الذى يعود عهده الى سنة (٨٥٣ ق٠ م) ، وان صورة الرجل العربى لم يسبق أن أثبتت قبل ظهورهـا فى لوح (تغـلات فالازار الثالث) نحو سنة (٧٣٨ ق ٠ م) ، فليس من الجائز أن تقطع الصلات أو أن تجعل واهية بين العرب ، وبين القوى البشريـة ذات الطاقات التى لاحد لها ، والتى استوطنت بلادنـا منـذ ما ظهرت الحياة البشرية فيها ، ومن المستحيل على أى مؤرخ انـكار هذه الصـلات والتخفيف من شأنها أو من شأن التجـارب التى تعرضت اليهـا تلك القوى البشرية وتناقلتها جيلا بعد جيل مـع حياة قاسية عاشتها فى الصحراء العربية ، فمنحتها المناعة والصلابة اللتين تجمعتا بشـكل كامـل فى العرب فيما بعد ٠

ولا ريب أن جهود هذه القوى البشرية العربية تعود الى جهود ما قبل التاريخ التى يزيد مقدارها على ٩٩ بالمائة من حياة البشريـة ، وانهـا كانت آنئذ تنحو نحو الاستفادة من الطبيعـة ، وتخزين امكانياتها الكبرى ، وتعهد وسائلها المتنوعـة التى منها قطعان الماعز والخراف وخاصة الجمال التى جعلتها رحالة تطوف الآفاق منذ عهد بعيـد ٠ اذ أن صورة الجمل المقعى وجدت فى مصر منحدرة من زمن ما قبل السلالات كما أن المصريين القدماء صنعوا من وبر هذا الحيوان النبيل الحبال وقماش الخيام فى عهد السلالة الثالثة ٠ مما يدل على أنه عرف فى بلاد النيل خلال زمن أقدم ، وانـه مـد فى امكانيات القوى البشرية العربية وجعل هـذه القوى تتدفق من مخزنها فى شبه جزيرة العرب على كل أطراف الشرق الادنى ٠

وقد أغنى الاستاذ كون من جامعة بانسلفانيـا مؤخرا نظريـة الصحراء كخزان بشـرى عربى بعناصر جديدة ، اذ أنه جعل من هذه الصحراء بعد حفرياته فى غازى (ثنية البيضا) و (جرف العجلا) القريبين من تدمر الارض التى نشأ منها انسان (الهوموسابيانس) جد الانسان الحـالى ، والمكان الذى انطلقت منه كل الاقوام التى سكنت كل القارات ، فقد عثر فى المكانين المتقدمين عـلى أدوات صوانية وبقايا عضوية من العهدين الاشولى و (الليناللوازى) ويصـح آن يؤرخ الزمن الاول من عهد (٦٠ الف سنة ق ٠ م) والزمن الثـانى من عهد (٣٠ الف سنة ق ٠ م) ٠ مما جعـل الاستاذ كون يقول ان هذا الانسان أقام فى تلك البقعة (٣٠ ألف سنة متعاقبة) وهذه المدة الطويلة لم تتحقق لاية اقامة بشرية فى أية بقعة أخرى من العالم ، ومما يغرى بالظن آن الصحراء كانت منشأ جنس (الهوموسابيانس) الذى وجد فى غاباتها المندثرة ومراعيها خير مكان يقطنه خلال الازمنة التى كانت فيها الحياة متعذرة فى مناطـق أخرى بسبب الجموديات والثلوج ٠ فهـل يمكن اعتبـار العناصر البشرية العربية أقرب العناصر التى نشأت من أصل الانسان الحالى ؟ هذا ما سيجيب عليـه ولا شك المستقبل القريب ٠

ومهما يكن فان فاعليـة العناصـر البشريـة الناشئة من شبه جزيرة العرب تظهر بجلاء قبل فجر التاريخ فى أطراف الهلال الخصيب ٠ وكل الدلائل تشير الى أن عناصـر عربية هائلـة يطلق

عليها المؤرخون اسم الاكاديين قدمت خلال الالف الرابع قبل الميلاد فأقامت فى بلاد الرافدين وصحراء الشام ، وسورية ، وسهمت فى انشاء وتطوير المدنيات التى نعرفها من مكتشفات (تل حلف) و(العبيد) وغيرهما • ويظن بعض العلماء ومنهم (ادوارد دورم) ان علاقات هذه الاقوام بالامم التى كانت مقيمة هناك قبلها ولايستبعد أن تكون هى الاخرى من نفس المنشأ ، كعلاقات سكان السهوب بسكان السهول أو العلاقات التى تعكسها الاسطورة بين (أنكيدو) و (جيلغامش) ، فـ « العربى الجديد قبل عصر التاريخ مباشرة هو (انكيدو) والعربى القديم المتمدن المقيم فى بلاد الرافدين هو جيلغامش ، والاتفاق بين البطلين كان اتفاقا بين سكان السهوب الرحل ، وسكان السهول المقيمين ، وسيصبح نموذجا للاتفاق الذى يجرى بين فترة وفترة ، وسنة واخرى ، ويوم ويوم منذ ذلك التاريخ حتى عصرنا هذا ، أثناء قدوم العناصر العربية من شبه جزيرة العرب وترشحها الى العراق وسورية والاردن وغيرها » كما يقول العالم رنيه دوسو •

وعلى الرغم من أن اتصال هذه العناصر العربية التاريخية الاولى ، لم يكن متصلا كل الاتصال بوادى النيل كاتصالها ببلاد الهلال الخصيب بسبب بعد المسافات ، وندرة الواحات على طريق بلاد النيل فانها كانت تفد من حين وآخر على ذلك القطر • وان أعوزنا الدليل على ايضاح آثارها فى مدنيات (الخرطوم) و (مرمدة) و (البدارى) لما أعوزتنا الاشارات التاريخية المتعددة التى تثبت لنا أن المتحضرين المصريين كانوا يخشون شأن سكان بلاد الرافدين البداة الرحل ويعادونهم معاداة المقيمين للمتنقلين • وما منا من يجهل أن ملوك السلالة الاولى خاضوا معارك طاحنة ضد بداة صحراء سيناء الذين أطلقوا عليهم اسم (ايونتيو) ، وان البداة الناشئين من شبه جزيرة العرب دخلوا مصر فى آخر عهد السلالة السادسة وأقاموا فيها • ويذكر بعض المؤرخين معتمدين على بعض النصوص التاريخية أنهم أنشأوا السلالتين السابعة والثامنة • واذا لم يدل كل ذلك على شىء فهو يدل على أن العناصر الخارجة من شبه الجزيرة العربية كانت على اتصال مباشر بالمدنيات الكبرى التى انشأتها أو أسهمت الى حد كبير فى انشائها فى أطراف الهلال الخصيب وفى وادى النيل •

وفى نحو سنة (٢٩٠٠ ق • م) امتدت من شبه جزيرة العرب موجة بشرية أخرى حملت الكنعانيين وهم الفنيقيون المقبلون الى ساحل البحر الابيض المتوسط الشرقى ، والعموريين الى سورية الوسطى ثم الى بلاد الرافدين • وتاريخ سورية فى الالف الثالث غير واضح تماما • الا ان الثابت ان السكان كانوا يمتون بصلات القربى الى سكان بلاد الرافدين ، وان العلاقات التجارية والسياسية كانت قائمة بين سورية ومصر • وقد طلعت علينا المكتشفات الاخيرة التى قامت بها بعثة الاستاذ (اندره بارو) فى تل حريرى بما توضح معارفنا عن تلك الازمنة بعض التوضيح ، وما يقدم لنا صورا شائقة عن مدنية الفرات الاوسط المعاصرة • اذ أن هذه المكتشفات أبانت أن مدينة (مارى) الثاوية فى جوف التل المذكور كانت مركزا سياسيا هاما فى تلك المنطقة ، وان أزهى عصورها انقضى فى فترتين الاولى عاصرت النصف الاول من الالف

الثالث قبل الميلاد ، وتدل مخلفات هذه المرحلة على مدى التقدم والازدهار والسوية الحضارية العالية والفن الرشيق التعبيري الذي بلغته العناصر العربية الممتزجة بغيرها من العناصر السومرية آنئذ • وقد أظهر موسم الحفريات الثامن في هذه المدينة لدى التنقيب في حيها الديني معبدين للاله (شمش) والربة (عشتارات) يرقيان الى ما قبل عهد صارغون • والتقطت من أرض هذين المعبدين حطام من تماثيل كبيرة وصغيرة مصنوعة من (الرخام) فظهرت بعد اصلاحها هذه الروائع التي ابتكرها احساس مرهف وقوة وشاعرية ولطف ودقة منقطعة النظير في التعبير • وقد اعتدنا أن نسمي الآثار التي سأعرضها عليكم بالآثار السومرية ولا يمكنني أن أسميها آثارا عربية • وكل ما يسعنا قوله هي انها نتاج وسط بشري ثقافي كانت تجدده الغزوات البشرية الخارجة من شبه جزيرة العرب •

- اليكم تمثالا كبيرا من الالباتر تشير كتابة آكادية خلف ظهره انه يمثل (ايتور شامغان) ملك ماري ، وهو أكبر التماثيل المعروفة من هذا النوع، وقد كان هذا التمثال محطما فجمعت قطعه الاثنتان والاربعون ، وحفظ في جناح الآثار الشرقية في المتحف الوطني في دمشق •
- وهذا التمثال صغير من الالباتر أيضا لا يتجاوز ارتفاعه (٢٥ سم) وهو آية نادرة من آيات الفن العالمي ، ويمثل حسب ما تذكر كتابة محفورة على ظهره ، مغنية الملك (اورنينا) التي أهدت صورتها دليلا على تقاها الى معبد الربة عشتارات ، وأجمل ما فيه التعبير القوي والعينان المتألقتان به والشعر المسدل المتموج •
- رأس صغير للربة (نينهور ساغ) ، وهو من روائع آثار الالف الثالث قبل الميلاد في ماري •
- تماثيل صغيرة مختلفة يلبس أصحابها المتعبدون ثياب (الكوناكس) وايديهم مجتمعة الى بعضها وأعينهم من اللازورد • وهم من أعضاء بلاط ماري واسرتها المالكة •
- اليكم الان مجسما جصيا ظهر خلال الموسم العاشر من الحفريات في نفس الحي الديني ويعود عهده الى النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد • وهو يمثل منزلا موزعا الى خمس غرف ومحاطا بسور مستدير • ويدل على نمط العمارة قبل عهد صارغون ، وان مهندسي ذلك الزمن كانوا يتخذون طرقا وأساليب متقنة في تنفيذ تصاميمهم •

والعصر الثاني في حياة هذه المدينة الزاهرة فاتحة الالف الثاني قبل الميلاد • وقد أوقف لدى تخريب المدينة نحو سنة (١٧٥٠ ق٠م) على يد حمورابي ملك بابل العموري • وقد تهدم ما كان يفخر به آخر ملوك ماري (زيمر – ليم) على كل مدن الشرق ، وهو قصر المدينة الملكي ولؤلؤة فن البناء الشرقي القديم ، وتعادل ساحته هكتارين مربعين ونصف الهكتار • واليكم بعض آثار هذا العهد :

- تمثال من الالباتر بحجم يعدل ثلاثة أرباع الحجم الطبيعي ، وتتجلى فيه دقة الفن الاكادي العموري • واجمل ما فيه ابتسامة

الربة عشتار أو آلهة الخصب والينبوع وعقودها الستة ، وشعرها المصفف ، والاناء الذي تحمله بيديها ، وثوبها الذي يمثل خطوطا متموجة ترمز الى الماء ، وعلى هذه الخطوط سمكات تسبح فيها •

- تمثال ايشتوب ايلوم المصنوع من حجر الديوريت الصلب • ويرى صاحبه لابسا القبعة التي كان يضعها امراء بلاد الرافدين على رؤوسهم ، وفي موقف خشوع وتعبد •
- رأس لبوة مصنوع من البرونز وكان يزين مدخل أحد معابد ماري • ونحته والشعور المفاجىء المحبوس فيه يدلان على مدى الاتقان الذي بلغه فن تمثيل الحيوانات في ماري قبل أن تحل بها النهاية المحتومة •

* * *

واستمرت العناصر المنبثقة من الجزيرة العربية على استيطان الارض السورية ، وأسهمت في تطوير زراعتها ، وانشاء مكانتها التجارية وتأليف بانتيون دياناتها ، ولم تكتف هذه العناصر في القرون الاولى من الالف الثاني قبل الميلاد بضم الهلال الخصيب الى مدى الجزيرة العربية الحيوي ، بل انها تطلعت الى وادي النيل ، وقام من يسمى منهم بـ (الهيكسوس) وهم كنعانيون وعرب بالوصول الى مصر ، وراحوا يعملون للاخذ بأسباب مدنيتها ، ويوثقون العلاقات بين بلاد الشام ووطنهم الجديد ، ويقدمون نماذج رائعة عن أدبهم الكنعاني الى القصص الفرعونية ويسعون الى تطوير الكتابة ونقلها من شكلها التصويري الى شكلها الالفبائي •

وفي هذا الزمن فارق الفينيقيون كما يذكر (هيرودوت) سواحل البحر الاحمر الشمالية وهاجروا الى الساحل السوري، وجهدوا في توثيق صلاتهم ببلاد العرب الجنوبية برا وبحرا وساعدوا على انشاء جهاز متقن للسقاية في أودية اليمن العليا ، فكانوا بذلك أول من وصل بين طرفي العالم العربي الشمالي والجنوبي ، ثم راحوا يعملون وقد أدركوا أن مستقبل هذا العالم حول البحر المتوسط ، وفي مياه المحيط الاطلسي فنشروا مستعمراتهم ومرافئهم في كل مكان ، وانشأوا للجزيرة العربية معتمدين على موارد وامكانيات الساحل السوري ، أكبر توسع بحري عرفته العصور القديمة ، أمتد على جزر البحر المتوسط المشهورة وعلى شطآنه الجنوبية والغربية ، وعلى سواحل افريقيا الغربية ، وحتى انكلترا ، وربما أمريكا كما تدل بعض المكتشفات الاميركية الاخيرة •

وليس مثل مدينة (أوغاريت) الثاوية في بطن رأس شمرا شمالي اللاذقية ما يبين هذه الفاعلية الحضارية الهامة ، فمنذ سنة ١٩٢٩ حتى يومنا هذا تلقي الحفريات التي يقوم بها الدكتور (كلود شيفر) هناك أضواء باهرة على حضارة هذه المدينة التي كانت عاصمة لدولة صغيرة في رقعتها كبيرة في الاثر الذي تركته في حياة العالم المعاصر • ولن اتحدث عما أبانته الحفريات من تنظيمها العمراني وشوارعها وأحيائها ودورها ومعابدها وأبنيتها المشهورة وقصرها العظيم الذي كان أكبر القصور الملكية وأفخمها في الشرق الادنى خلال الالف الثاني قبل الميلاد لان كل ذلك معروف لديكم • الا انني اسمح لنفسي بالتعرض للكنوز الاثرية المعنوية التي وجدت في هذا القصر ، وهي الرقم الفخارية المكتوبة باللغات الاكادية والاوغاريتية

والحورية والقبرصية وغيرها ، والتى كانت محفوظة على شكل وثائق مصنفة بحسب مواضيع القضـايا والإمور التى تتضمنها • وقد نشرت هذه الوثائق مؤخرا فى كتب علمية ضخمة تبينت منها معلومات هامة ومفصـلة عن التنظيـم السياسى فى مملكة (أوغاريت) ، وعن علاقاتها بجيرانها وسـياستها ازاءهم وعن مبادىء القانون الدولى السائد آنئذ ، واصول التحالف والتعايش السلمى بين الحكومات وانظمة التجارة الدولية ، واصول التحكيم وتقديم المساعدات ودفع التعويضـات ، وشجب الانتهازية السياسية وبصـورة عامة كل ما يتعلق بالتشريع والحقوق • ولا ريب أن هذه الحقوق الاوغاريتية كانت نافذة فى كل المدن الكنعانية الفينيقية ، وانها انتشرت مع انتشـار التجارة الى كل أرجاء البحر المتوسـط ، فعرفتهـا شعوبـه البحريـة ، وأسهمت فى صوغ الحقوق اليونانية والرومانيـة فيما بعد •

وتبين منها ايضا ان تاريخ المدينة كان متصلا بالتاريخ العام للشرق الادنى ، وان ملوكها الذين تعاقبوا عـلى عرشها خلال القرنين الرابـع عشـر والثالث عشر بلغ عددهم اثنى عشر ملكا ، وظهرت أسـماء الملوك الحثيين فى بوغازكوى وكركميش واسماء ملوك عامودا ومقيس ، وصيدا ، وبيروت ، وعمورو الذين عاصروهم • كما عرفت قوائم المدن والقرى التى كانت تابعة لاوغـاريت والضرائب المفروضة على سكانها ، وانواع هـذه الضرائب ، وعدد أيام اللازم على كل فرد تقديمها الى الدولة لتعبيد الطرق ، وتعمير الجسور وقطع الاشجار • وعثر ايضا على نصوص كثـيرة تتعلق بالمبايعـات والمبادلات والهبات والتركات ، والاحكام والمراسيم التى تنظم الحياة الاقتصادية والادارية والاجتماعية • ولوحظ خلال نصوص أخرى ان الاموال كانت متوفرة والمعادن الثمينة الذهبيـة والفضية كثيرة ، والاراضى مرتفعة الاسعار ، والهدايا التى تقدم الى الملك غالية القيمة ، وكل ذلك يدل على الثراء الذى كان منتشرا فى هـذا البلد الواقع على الطـرق التجارية الدولية ، وعلى ان الحياة كانت فيه ناعمة للجميع كما استدل من مجموع كل هذه النصوص الحقوقية على ان الحقوق الاوغاريتية تشبه الحقوق التى كانت منتشرة فى بابل وآشور وعيلام ومارى وبقية انحاء الهلال الخصيب خلال الالف الثانى قبل الميلاد • ويفسر هذا التشابه بالقرابة العرقية والاصـــل المشـترك اللـذين تمت اليهما بأوثق الصلات كل الشعوب التى سكنت العراق وسورية آنئذ •

* * *

وتراءى أيضا بنتيجـة الحفريات الاثرية ان اوغاريت كانت على الساحل السـورى كما كانت فيما بعد (البندقية) و (انفرس) أى مرفأ دوليا ، وان تجارتها بلغت درجـة عالية من الازدهار • وكانت عنابر مرفئها تعج بالبضائع التى تصدر الى كل الجهات • ومن الاشياء التى كانت تصدر من أوغاريت وغـيرها من المدن الساحليـة السـورية الاوانى المعدنية الثمينة • وقد امتدحها هوميروس فى الياذته المشـهورة عنـدما تحـدث عنها البطل آشيل ، فقال انه لا توجد آنية أخرى فى العالم تنافسها فى جمالها ، وفى الواقع ان تجار أوغاريت وسيميولا وصـور وصـيدا كانوا يحملونهـا الى مرافىء البحر المتوسط فتتعرف شعوب الغرب فى

المشاهد الممثلة على جنباتها على صور الشرق وأحلامه .

وفي متحف حلب انموذجان رائعان من هذه الآنية ، كانا قد أخرجا في حفريات أوغاريت سنة ١٩٤٣ . والاول قصعة من الذهب الاصفر ، يزين سطحها المحدب حقل مستدير وصفان من المشاهد المتوازنة في التأليف ، ويظهر فيها ملك يصمي طريدة بسهم وهو قائم على عربة ويلاحق قطيعا من الحيوانات المختلفة والثاني كأس من الذهب نصف كروي مزين بزهرة نباتية وحيوانات حقيقية وخيالية وكأن الكأس طنفسة شرقية من عينة الزخارف .

ومن آيات الصناعة الفنية التي ازدهرت في اوغاريت بعض المصنوعات الدقيقة التي عثر عليها بين الانقاض في احدى باحات القصر الملكي وأشهرها قطع عاجية منحوتة جمعت ونظفت وأعيد تركيبها ، فتألف منها لوح ذو مشاهد متعددة ، ويظن انه كان يزين واجهة عرش ملك اوغاريت ، وبين المشاهد التي ترى على هذا اللوح ربة أوغاريت الكبرى ، وعلى رأسها تاج يشبه ما تضعه الربة المصرية (حتحور) على رأسها ويضاف اليه قرنا الآله بعل حامي مملكة اوغاريت . وتلقم الربة ثدييها الى أمير وأميرة . وتؤلف هذه المجموعة مشهدا غريبا من مشاهد الميتولوجيا السورية القديمة . ومنها ايضا لوح يمثل ملك هذه المدينة وملكتها وهما متعانقان . وتبدو فيه الملكة بجمال رائع وهي تقرب من وجه الملك حنجور العطر . ومن المكتشفات العاجية الثمينة ايضا في القصر الملكي رأس من العاج المكفت بالذهب . وهو يمثل ملكا من ملوك أوغاريت ، ويؤلف أثرا ثمينا نادرا من آثار النحت في ذلك العصر .

* * *

ولا يعرف شيء كثير عن العموريين في سورية الداخلية خلال الالف الثاني قبل الميلاد . وما ذلك الا لانه لم تجر أعمال أثرية هامة في المدن الداخلية حيث يتوقع ان توجد مخلفاتها . فحفريات البعثة الدانمركية الاثرية التي رأسها الاستاذ (هارولد انكولت) في تل مدينة حماة والتي كان متوقعا ان تكشف الستار عما نجهله عن حياة ذلك العصر ، توقفت لما اوشكت ان تصل الى الطبقات المقابلة له . كما ان مخلفات العموريين ان وجدت في دمشق وحلب ، فهي واقعة على أعماق سحيقة تحت المركزين القديمين من هاتين المدينتين ، ويتعذر الوصول اليهما حاليا ، ومهما يكن فان اروع الآثار التي وصلتنا من هذا العهد ، أسد منحوت اكتشف في قرية الشيخ سعد من حوران ، وأودع المتحف الوطني بدمشق . ويتصف هذا الاسد ببلدته القوية ومشيته الواقعية ، وبنزوع الفنان الذي أبدعه لمحاكاة تحرك الاسود ، وهي طليقة ، ولا شك ان هذا الاثر يمثل الفن السوري المعاصر المتأثر من فن بلاد الرافدين .

* * *

وفي نحو السنة (١٥٠٠ ق٠م٠) حملت موجة ثالثة دفعة جديدة من الاقوام الناشئة في شبه جزيرة العرب . وقد عرف هؤلاء باسم الآراميين كما اطلقت عليهم أسماء أخرى منها (الاخلامو) وال (سوتو) وال (خبيرو) وال (خاباطو) وكانوا أصلح الاقوام لان يرثوا العموريين ويتعايشوا مع الكنعانيين ، ويحلوا في المدن السورية الداخلية الشمالية والجنوبية وان يسودوا هذه المنطقة وينشئوا أساسها

البشرى ويمنحوها لغتهـم حتى مجيء الموجتـين العربيتين الاخيرتين الرابعة والخامسة اللتين حملتا الى سـورية الانباط والمسلمـين ، وقـد ارتكز الآراميون خاصة فى دمشق وألفوا سلالة ملكية هى سلالة (عبدى عاشرتا) وابنه (عازيرو) التى عاصرت القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وحالفت فراعنة السلالة الثامنة عشرة • ثم امتد الآراميون الى الجنوب وألفوا مملكة (عمون) ومملكة (ايدوم) واستعمروا النقب ، وأقاموا فى حماة ، واختلطوا فى الشمال ببقايا الحثيين وانشأوا عددا من الدول المتحالفة الصغرى •

ووضع الآراميون الفن السورى فى الموضع الذى يجب ان يكون فيـه دوما أى فى مستـوى متوسـط بين الفن المصرى وفن بلاد الرافدين ، وأغنوه ببراعتهـم ومهارتهم ودقتهم فاكتسب منهم هذه الصفات التى أصبحت أكثر صفاته لصوقا به• ويـدل عـلى هـذا الفكر الجديـد فـى الحيـاة الابداعيـة السورية القطـع العـاجية التى عثر عليها فى أرسـلان طاش والتى كانت اجزاء فى سرير وحمالة ملك دمشق حزاقيل• وهى محفوظة حاليا فى متحف حلب وتتألف من لوحات صغيرة منحوتة نحتا دقيقا • ويشـاهد فى احداها ثوران مجنحان وعلى رأسيهما تاجا مصر العليا والسفلى وهما يتقابلان فى طرفى الشجرة المقدسة • ويرى فى لوحة ثانية الاله (حورس) وفى ثالثة جنيان يمسكان حزمة من اوراق البردى ، وفى رابعة وعل ، وفى خامسة بقرة ترضع عجلا •

* * *

ومن الاثار السورية المشهورة فى هذا العصر أسـدا أرسـلان طاش وهما منحوتان فى كتلتين ضخمتـين من حجر البـازلت ، وتزن كل منهما عشرين طنا ، ويشبهان ما يماثلهما من الصور فى الفن الآشورى ، ويؤلفان أثرين رائعين وغريبين حقا ، وقد تصرف الفنان فى تمثيل أوبارهما تصرفا حرا مستوحيا مفهوما واقعيا قويا يعتمد على الحجوم الضخمة •

وقريب من هذين الاسدين أسد ثالث وجدته مديرية الآثار العامة فى (عين دارا) خلال حفرياتها التى اشرف عليها الاستاذ فيصل الصيرفى فى السنة الفائتة ، وهو أسد منحوت بفن مدهش ، ويتجلى فيه نفس المثـل الاعلى الذى رأيناه فى أسـدى أرسلان طاش مع قوة متزايدة فى التعبير ، وتصرف زخرفى فى نحت تفاصيل الرأس واللبدة والوبر ، ويمكن نسبته كالاسدين المتقدمين الى القرن التاسع او القرن الثامن قبل الميلاد •

* * *

وحل العصر الهلنستى او السلوقى فى سورية واحتكت مدنية بلاد اليونان بالشـرق عـلى أثر حملات الاسكندر الماكدونى ، واقام بعض اليونانيين فى الوسط الآرامى السورى ، فتطورت المدنية اليونانية ، ونمت نموا جديدا لم تعرفه فى سالف أيامها ، ومنحتها سورية امكانيات واسعة جـدا ، فانششت فى الاراضى السورية مدن لا تحصى منها انطاكية وسلوقيـة واللاذقيـة ودورا أروبوس وتجددت مدينتا دمشق وحلب • ويصعب علينا فى هذه النظرة العاجلة ان نلم ولو قليلا بصفات التقدم العمرانى الواسع الذى حققته كل مدينة من هذه المدن بمنشآتها الهامة ودورهاوساحاتها وشوارعها •

أما الفنون البلاستيكية فقد اكتسبت نزعـة

عاطفية ساعدتها على تمثيل التهيج والالم والحزن والغضب والذهول واليأس والرجاء وغير ذلك من العواطف مما نقل الفن العالمي المعاصر من مرحلته الكلاسيكية الى مرحلته الرومانطيقية • وأشهر الآثار التى تركتها المدرسة الفنية السورية الهلنستية مجموعة تماثيل (افروديت) و (بان) و (ايروس) التى صنعها مثالون سوريون فى آخر القرن الثانى قبل الميلاد ، وأهدوها الى معبد من معابد (ديلوس) ، وهى محفوظة فى متحف اثينا الان •

ومن هذه الآثار ايضا تمثال (بسيشة) التى عثرت عليه بعثة الاستاذ (مايانس) البلجيكية فى خرائب (أفاميا) بالقرب من حماة وتبدى فيه بسيشه على شكل فتاة صغيرة جالسة على قاعدة شبه مستطيلة ، وعيناها تتجهان الى السماء كأنهما تستعطف الارباب التى لا ترحمها •

ـ وتمثال (تيكه) او ربة سعادة انطاكية ، وتوجد منه ثلاث نسخ محفوظة فى متاحف الفاتيكان ، وفلورنسا والافوزى • وهو يمثل المرأة الجليلة (ايماته) التى قدمت ضحية الى الآلهة لدى تشييد انطاكية ، وهى جالسة على صخرة ، وتمسك بيدها حزمة من السنابل ، وينبجس نهر العاصى على شكل غلام من تحت قدميها بحركة مسرحية ، أما رأسها فمتوج بتاج مصنوع على هيئة سور المدينة •

ـ وأخيرا فان المعهد الهلنستى السورى كان يعمل فى تقليد الفنانين الكلاسيكيين ومحاكاتهم فى طرقهم الفنية ، ومن اشهر ما ابدعه فى هذا المضمار تمثال (البينسة) او (اسبازيا) وقد عثر عليه (هارولد انكولث) خلال حفرياته فى حماة • وهو نسخة من القرن الثانى عن تمثال اصلى ومحفوظ حاليا فى متحف دمشق •

* * *

ثم اصبحت سورية بعد سنة (٦٤ ق٠ م) ولاية رومانية • ولم تستطع روما ان تحدث فى الوسط الثقافى السورى اى تغيير • اذ انها وجدت نفسها ازاء بلاد متحضرة على درجة عالية من المدنية ، فتركت لها انظمتها الادارية ، ومؤسساتها الخاصة ، وابقت على مدنها استقلالاتها المحلية ، ولم يهاجر اليها الرومان كما فعلوا فى بقية الولايات ، فاستفادت المدنية السورية الهلنستية الارامية من هذا الوضع ، ونعمت بالسلم العالمى الذى انتشر آنئذ وراحت تطور مبتكراتها وتنوع منشآتها وتعمر مدنها ، وأسهم السوريون فى كل مضمار ، وظهر منهم القواد والاباطرة ، ومخلفات هذا العهد كثيرة جدا فى سورية ، وتدل عليها القلاع والحصون والابراج والمسارح واقواس الظفر والاقنية والسدود ، كما تدل عليها مئات وآلاف التماثيل والتحف الاثرية الصغيرة المصنوعة من المرمر والفخاروالزجاج والبرونز والفضة والذهب والمحفوظة فى المتاحف السورية • واكتفى أن أعرض على حضراتكم الان صور بعض هذه الآثار •

ـ هذه خوذة اثرية وجدتها مديرية الاثار العامة مع قطع اثرية هامة اخرى من الذهب والفضة فى مقبرة بالقرب من حمص ، ويعود عهدها الى النصف الاول من القرن الاول الميلادى وتتألف من قسمين الاول حديدى ويمثل الرأس ،

والثانى حديدى ايضا الا انه مغطى بالفضة ، ويمثل الوجه ، ولهذا الوجه تقاطيع واقعية تدل على أن الخوذة عملت على صورة صاحبها ، وإكبـر الظن انها صنعت فى احد معامل انطاكية لحساب احــد ملوك حمص المنحدرين من سلالة (شمشى غرام) التى كانت تحكم المدينة آنئذ •

ـ وعثرنا فى تل (أم نوى) من حوران عـلى خوذتين أخريين مصنوعتين من البرونز • وعـلى الاولى صورة صاحبها تحت صورتى ربـة الظفر واله الشمس ، والى الجانبين يعلو هذا الرجــل الى السماء على عربة رمزا لخلوده • أمـا القناع فيمثل تقاطيع وجهه •

ـ أما الخوذة الثانية فيقف صاحبها أمام مذبح ليقدم تضحية الى الآله • والى طرف من اطرافها يوجد اسم (ماكتوريوس بارباروس) صانع الخوذة وهذا الاسم عربى ومحول الى شكل لاتينى عن اسم المختار او المقعطر •

ولا ريب فى ان الفنان المتقدم صنع الخوذتين لحساب قائد ســورى من قـواد الامبراطوريــة الرومانية الذين قدموا لها خدمات جلى ، وهو من جملةاولئك القوادالذين اعتمدت عليهم فيمابعد أسرة سيفير • وقد زاد النفوذ السورى فى روما خــلال عهد هذه الاسرة ، ولعب الامراء والاميراتالناشئون من هذه البلاد الدور الاكبر فى تصريف الحكم • ثم قام فيليب العربى فاستولى على الامبراطورية •

ولم يكتف السوريون بالوصــول الى عرش روما بل حاولوا ان يستخلصوا كل الامبراطورية وتطلع امراء تدمر فى النصف الثانى من القــرن الثالث لجمع سورية ومصر والاناضول ، ولجعل تدمر عروس الصحراء عاصمة لها قبل ان تؤدى كارثة سنة٢٧٠ بآمال زنوبيا واحلامها التى يحققها العرب مع موجتهم الخامسة الاسلامية بعد اربعـة قرون •

ولزام علينا ان نذكر ان المدنيـة التدمريــة مدينة بوجودها للعبقرية العربية وحدها فأصــل التدمريين عربى واضــح واسماؤهـم ودياناتهـم وآلهتهم وتقاليدهم عربية صحيحة والظاهر انهـم اكتشفوا واحة تدمر اثناء أسفارهم فاستخدموهـا كمحطة كما فعل الانباط فى البتراء ولمـا آل أمر التجارة الدولية البرية اليهم نظموا سير القوافـل التى تقطع الصحراء وتحاذى الفرات وتصـل الى الخليج الفارسى • وقد ابحروا بمراكبهم الى الهند وتاجروا بحاصلاتها وحاصلات بلادالعرب وباعوها الى سكان البحر المتوسط بأرباح طائلة • فتجمعت لديهم ثروات هائلة كان من أثرها منشئات تـدمر العظيمة وشوارعها المستقيمة المتعامـدة وساحاتهـا ومعابدها واسوارها ومقابرها الرائعة وتعد أطلالها بحق أعظم اطلال فى الشـرق الادنى ، وتنفق الحكومة السورية على اصلاحها وترميمها واظهارها مبالغ ضخمة كل سنة •

ومن الاعمال الاثرية الكبرى التى قامت بهـا مديرية الاثار فى هذه المنطقة قبل الحرب العالمية الثانية اظهار معبد (بل) وعزلــه عن الابنيــة الهزيلة الحديثة التى تجمعت فى فنائه الواسع • وضمن هذا الفناء الخارجى يقوم المعبد الداخـلى المحاط بعمد كورنتية وكانت الطقـوس الدينيــة العربية الوثنية تقام فيه وقد حول الى كنيسة ثــم الى مسجد •

ـ ومنذ عدة سنوات كشفنا التراب عن مسرح تدمر الجميل ، واظهرنا كل اجزائــه ، فتبين أن مدرج القسم السفلى منه يتألف من عشرة صفوف من القاعدة وان له ساحة (اوركسترا) مستديرة ومحاطة بحاجز ، وان دكة التمثيل فيه مجهــزة بدرجين من الخارج ودرجـين من الداخــل ، ويتوسطها خمسة أبواب شأن المسـارح الـكبرى المعروفة فى العالم كمسرح (بوجى) ومســرح (اورانج) ، وكل هذه الابواب مزينة بالاعمــدة والزخارف البنائية والهندسية البديعة • ووراءها من الجانبين غرفتــان صغيرتان كانتــا مخصصتـين للممثلين •

ـ ونحاول اليوم ان نحسر الرمال عن كــل أجزاء المدينة • وقد قمنا فى هذه السنة بحفريات واسعة خلال ستة اشهر متوالية فى منطقة الشارع الكبير فى تدمر وهو يمتد على مسافة (١٦٠٠ متر) فتمكنـا من كشف ساحــة طولهــا (١٢٠ مترا) وعرضها (٤٠ مترا) •

ـ وكذلك فان بعثة أثرية سويسرية برئاسة الاستاذ (بول كولار) عميــد كليــة الاداب فى جنيف أظهرت خلال السنوات الثلاث الماضيــة أطلال معبد (بعل شامين) وهو ثانى المعابد الاثرية التدمرية ، وتبين أنه كان له رواقــان جانبيــان وباحتان شمالية وجنوبية وقاعة لتقديم الذبائح •

* * *

ومن المعلوم ان سورية اسهمت اسهاما كـبيرا جدا فى نشوء المسيحية ، وفى ازدهارها ، كما أنها كانت من المقاطعات البيزنطية المشهورة بتجارتها وزراعتها وصناعتها ، وعلومها وآدابها وكثرة رجال الدين فيها الذين اغنوا المسيحية بأفكارهم وآرائهم• وقد زود السوريون المسيحيون ديانتهم بالمنشــآت الدينية اللائقة خــلال القرون الرابــع والخامس والسادس • فانتشرت الكنائس والاديرة بكثرة فى حوران وجبل الدروز • ويذكر المؤرخون أنــه كان يوجد خمسة عشر ديرا فى غوطة دمشق• وما تزال الاطلال المسيحية الرائعة ترى فى منطقــة قصر ابن وردان القريبة من حماة ومنطقة لاندرين والكراتين بالقرب من معرة النعمان •

وتحتل الرصافة مكانة ممتــازة بين المواقــع المسيحية السورية • وتختص هذه المدينة الاثريــة انها كانت ابتكارا صنعيا من عمل عرب بلاد الشام لحمــــاية خط الفرات من غزوات الفرس قبـــل الاسلام • واوابدها مشيدة داخل سورها ، ولهــا أهمية كبرى فى تاريــخ العمارة خــلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين • واحسنها حــالا كنيسة القديس سركيس وقد مســح مخططهــا الاستاذ كوللويتز رئيس البعثة الالمانية التى تعمل بالاشتراك مع مديرية الاثار العامة فــى اظهــار أطلال الرصافة • ويظهر ان هذه الكنيسة تعود الى النصف الثانى من القرن الخامس • وقد أظهر العالم المذكور ايضا خلال العامين الفائتين اطــلال كنيسة الاستشهاد • ومازالت أطلال كنيسة اخرى وعدد كبير من الاوابد المختلفة مطمورة فى التراب• ويمكن رؤية الزخارف المنحوتة لكل هذه الاوابد وتيجانها واقواسها فى كل اطراف المدينة• ويلاحظ أن الاحجار التى بنيت منها ذات طبيعة فريدة اى انها من الجص المبلور الذى يضفى عليها روعــة خاصة• ويوصى ايضا ان يلاحظ باب السورالشمالى

ذى الزخارف الغنية • وتتألف هذه الزخارف من خمسة اقواس بأبعاد مختلفة محمولة على اعمدة • وقد شبه تركيبها واسلوبهـا ببعض اقســام قصر الامبراطور ديوكليسيان فى مدينة (سبليث) •

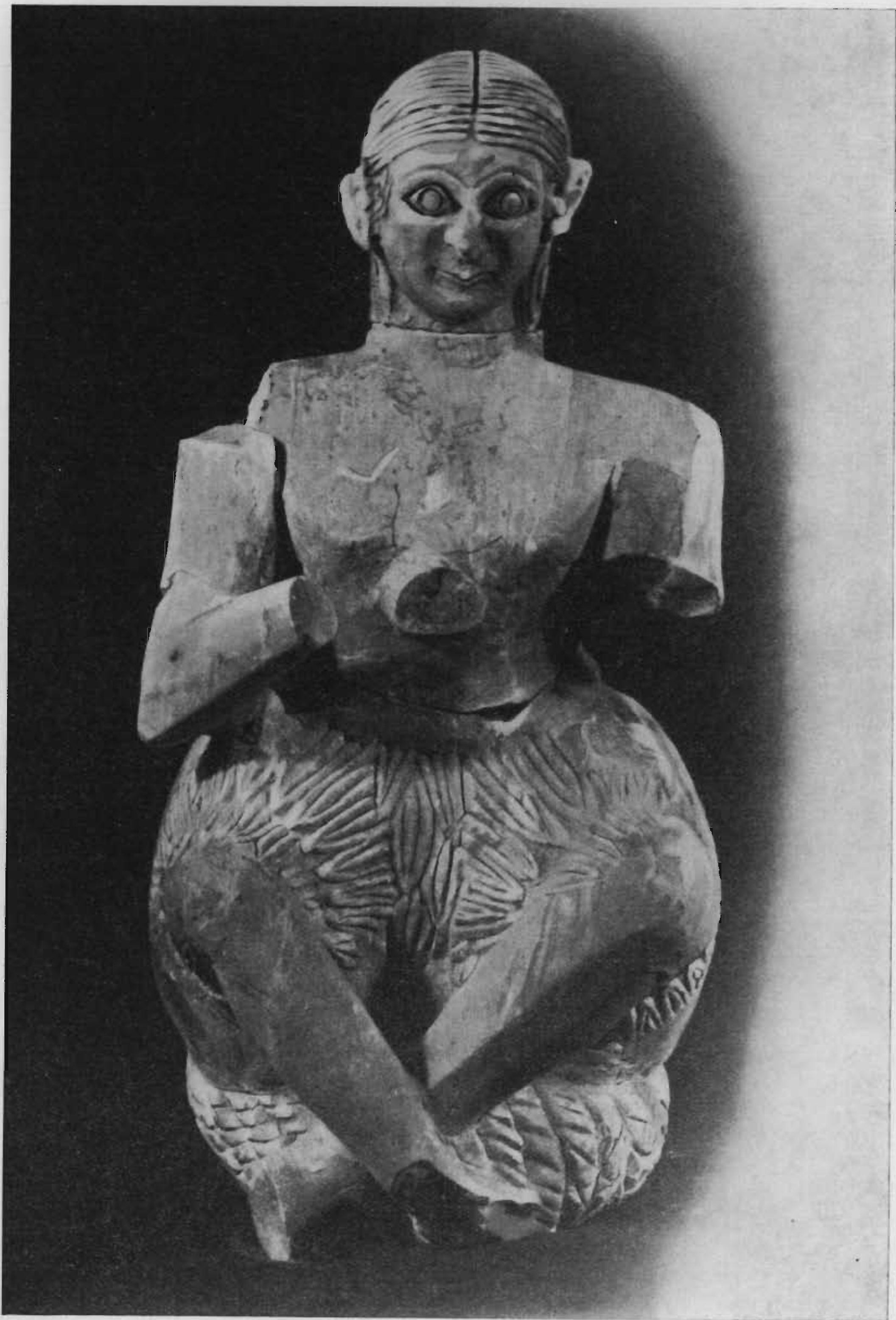
واخيرا فان المواقع الاثرية المسيحية فى شمالى سورية يزيد عددها على المئات وتتراوح عهودهـا بين القرنين الاول والسابع بعد الميـلاد • وقـد تكاثفت هذه المنشآت خاصة حول الاديرة مؤلفة مجموعات اثرية هامة • واشهر هذه المجموعـات على الاطلاق المجموعة القائمة فى قلعة سمعان • وفى هذه القلعة كنيسة القديس سمعان ذات الشكل الصليبى وقد شيدت فى الربع الثالث من القرن الخامس حول العمود الذى عاش عليه هذا القديس سبعة وثلاثين عاما من حياته ، والذى ظل بعد وفاته مدة طويلة محجة مشهـورة يقصدهـا الحجـاج المسيحيون • وتعد بقايا هذه الكنيسة أعظم واضخم اطلال مسيحية فى الشرق ، وليس لها مثيـل فى العالم ، لما لها من تخطيط فريد فى نوعه ، وتركيب علمى فى قسمها المثمن الاوسط ، وما فى هــذا القسم من اقواس مدورة وما لحنيتـه وواجهتـه الجنوبية من نسب بديعة ، وما للواحقه ككنيسة التعميد ولابنية الدير الاخرى من أثر فى تاريخ العمارة البيزنطية •

وخلاصة القول ان ثروات سوريـة الاثريـة عظيمة وثمينة جدا وهى كـثيرة التنـوع الا انهـا تجمعها صفات توحد بين مظاهرها المختلفة ، وهى انها كما ذكرت مرارا من انشاء وابتكار العناصر البشرية العربية التى خرجت على موجات متعاقبة من شبه جزيرة العرب خـلال القرون الطويلـة ، وعاشت فى الاراضى السورية وتأثرت من جوها وتقاليدها وثقافتها لـذلك فان هــذه الاثـار أتت منسجمة مع الطبيعة السورية انسجاما تاما ، ومتفقة اتفاقا كاملا مع الغايات التـى صنعت من أجلهـا ، فهى فى المادة الخالدة ذكرى الانسان العربى فى أطوار حياته اللامتناهية المليئة بجلائل الاعمـــال المبدعة •

وليس لدى بعد هذه اللمحات الاستعراضيـة السريعة عن آثار سورية القديمـة الا أن أتوقف عن الكلام تاركا الحديث عن العصور العربيــة الاسلامية السورية وما تركته من آثار فى مختلف الفنون والصناعات وهو حديث طويل ، الى فرصة أخرى أتمنى أن يسعدنى فيها الحظ للاجتمـاع بحضراتكم •

الصور المنشورة هى لصاحب المقال •

سومر



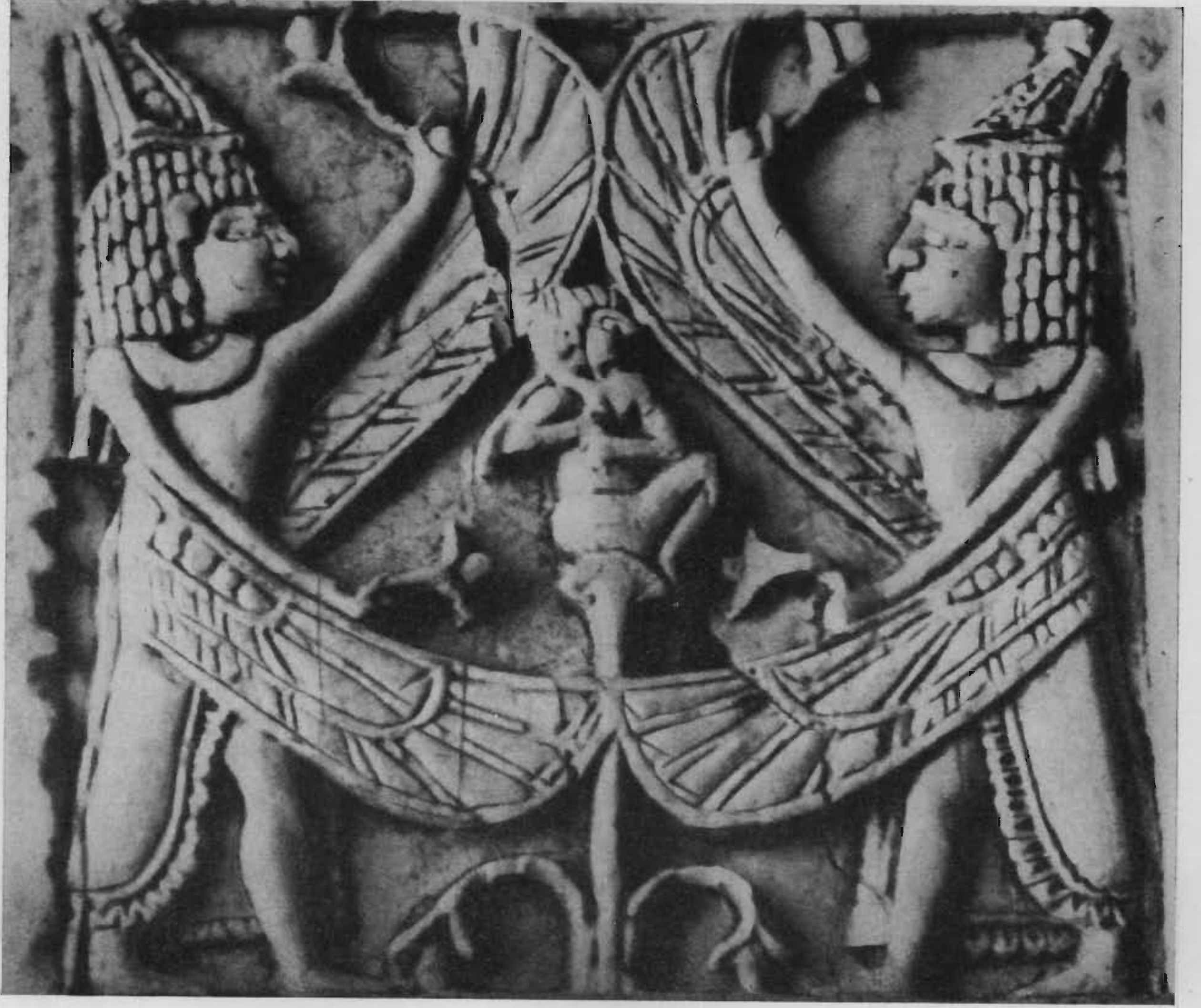
الشكل (١) : تمثال المغنية (أورنينا) ، مصدره (مارى) •



الشكل (٢) : تمثال الملك (ايتوز ـ شامغان) ، مصدره (ماري)



الشكل (٣) : لوح حجرى يمثل (أسدا) ، من بقايا العموريين فى سورية ، مصدره قرية الشيخ سعد ٠



الشكل (٤) : من القطع العاجية التى عثر عليها فى أرسلان طاش ، والمحفوظة فى متحف حلب .



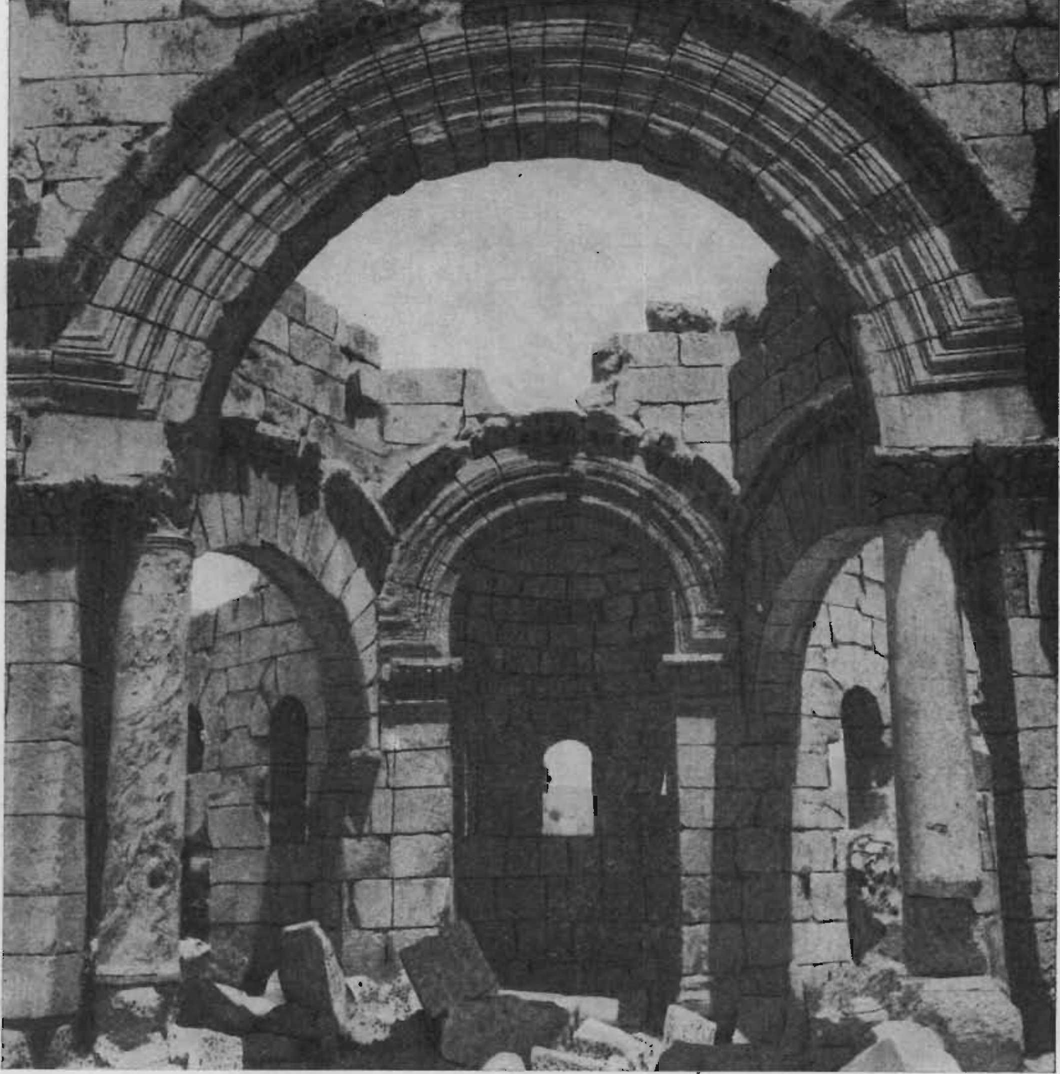
الشكل (٥) : خوذة أثرية هامة وجدت فى حمص



الشكل (٦) : معبد الالـه (بل) فى تدمر



الشكل (٧) : واجهة الكنيسة الرئيسية فى قلعـة سمعان



الشكل (٨) منظر حنية فى داخل كنيسة القديس سمعان